

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة المستنصرية

كلية الآداب

مستقبل الانسان بين التصدع الحضاري والثورة البيوتكنولوجية [دراسة في آراء فوكوياما]

إطروحة تقدمت بها

إيناس صباح مهنا

إلى

مجلس كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

وهي جزء من متطلبات درجة الدكتوراه في الفلسفة

بإشراف

الأستاذ الدكتور علي حسين الجابري

٢٠١٢م

١٤٣٣هـ

الخاتمة والنتائج

قبل استعراض النتائج التي توصلت لها الباحثة، لأبد من القول: اننا (ابناء الالفية الثالثة)، نعيش اليوم في عالم متجدد متغير متسارع الايقاع يحكمه العلم والتكنولوجيا والمادة، عالم تتصادم فيه قيم الثبات مع قيم التغير، ويتواجه فيه الواقع مع الخيال، والطبيعي مع الصناعي، والقيم المادية مع القيم الانسانية. لذلك لأبد للفلسفة ان تأخذ مكانها في كل هذه المتغيرات العلمية-التقنية (الحضارية)، ولأبد ان يمارس الفيلسوف دور الناقد الموجه المستنبط المُحلل لنتائج العلوم وغاياتها. ومرة اخرى، نجد انفسنا امام حوار العلم والفلسفة، لا في مشكلة كونية، او بيئية، او جيولوجية، بل في قضايا علمية - اخلاقية - اجتماعية، بين دواعي الفلسفة والعلم، لذلك حاولت الباحثة وبطريقة عقلانية / نقدية البحث في مواقف الفلاسفات والعلوم المعاصرة من هذه الموضوعات - حسب المعايير الدينية والاخلاقية والاجتماعية - لأنها تمس حياة الانسان ككل سواء جوهره وماهيته، ووجوده، ومستقبله وما يحيط به (محيطه الطبيعي والاجتماعي) (وفق اراء فرانسيس فوكوياما) .

وبعد هذا الشوط الطويل الذي قطعناه من البحث والدراسة وملاحقة جديد الكتب والبحوث والدراسات حول هذا الموضوع المعاصر، خرجت الباحثة بجملته من النتائج أكدت :

اولاً: ضرورة حضور الفلسفة المعاصرة في تعميق وعي المجتمعات حول مصيرها وبشكل عقلائي ونقدي، لما لها من دور فاعل وجوهري في توجيه الانسان المعاصر ومساعدته على مواجهة التغيرات والتبدلات المتسارعة، وخصوصاً أزاء الثورات العلمية والتطورات التكنولوجية، والاستفادة من ايجابياتها والوقاية من سلبياتها .

- ١- عجز الاجوبة الماركسية في ايجاد الحلول المناسبة لمشكلات الانسان وهمومه، واقتصارها على الجانب المادي من مشكلات الانسان واغفالها للجوانب الروحية والاجتماعية في حياة الانسان والقبول بالكفاف .
- ٢- اصبح الانسان الرأسمالي (الغربي) في ظل الفلسفة البراغماتية (أنا متعالية) على حساب المجموع، واصبح المجتمع عبارة عن افراد مستقلين انانيين، وغياب روح الجماعة المتعاونة المعبرة عن وحدة المجتمع لان اهتمامها انصب على ايجاد حلول لمشكلات الانسان الفرد (الغربي) ولاسيما صاحب المشروع الرأسمالي والمترفين. دون، عموم المواطنين .

٣- ان ظروف المجتمعات الاوروبية والحروب العالمية الكبرى في القرن العشرين، تركت الانسان يعيش مأساة وجوده، يعيش قنوطاً قاتلاً، حتى ان الفلسفة الوجودية بتياراتها الايماني واللايني، لم تجد له من حل الا بالانتحار. للخروج به من وطأة السأم والقلق والضياع .

ثانياً: تبدل مفاهيم العلم في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، والعبور: من الحتمية الى الاحتمالية، ومن السببية الى اللاسببية، ومن الضرورة الى الصدفة، ومن النظام الى الفوضى وعدم الاستقرار، وانتقالها من عالم الطبيعة الى عالم المجتمعات الانسانية وعلى الوجه الآتي :-

١- ان الاكتشافات العلمية في مجال البيولوجيا وما تفرع عنها من هندسة وراثية واستنساخ وعلوم الاعصاب والادراك والذكاء الاصطناعي وابحاث الخلايا الجذعية وصولاً الى المجال البيوتكنولوجي، على ما فيها من حلول ايجابية فأنها تهدف (سلباً) الى التحكم بالفرد والعائلة والمجتمع.
٢- ظهور ثورة علمية - معرفية جديدة انضمت الى الثورات السابقة وتفوقت عليها، وهي ثورة الحاسوب (الكمبيوتر)، التي قدمت للانسان اداة معرفية جديدة لا تقوم على العقل أو الحواس وانما على الآلة (الحاسوب)، ليتمكن من الوصول الى كل ما يريد بلا جهد عقلي او جسدي في عالم افتراضي غير واقعي .

ثالثاً: تراجع الفلسفات والحلول الحتمية والخطية لصالح الاتجاهات الاحتمالية والحلول الفوضوية، التي تخطت حدود السببية والقصدية والثبات الى عالم مفتوح على الاتجاهات والموضوعات جميعها. فلا يوجد ثبات في عالمنا المعاصر، كل شيء قابل للتغير والتحول والتطور، وخاضع للانتقائية والابداع، حتى اصبحت الفلسفة السائدة في زماننا هي فلسفة التحول بدلاً من فلسفة الكينونة التي كشفت عن:-

١- مُعاناة المجتمعات ولاسيما الغربية من تصدع حضاري، امتد اثره الى المجتمعات الاخرى، وقد اهتم فوكوياما بدراسة هذه التصدعات ومعرفة اسبابها، وطرق ترميمها وعلاجها، إن كانت ثقافية (معرفية) او اخلاقية، أو دينية أو اجتماعية .
٢- وتُعد التحولات الثقافية والتغيرات الحضارية التي شهدتها المجتمعات الغربية، اول اسباب التصدع التي رصدها فوكوياما، لتركها اثاراً قوية وواضحة على حياة (الفرد والاسرة والجماعات) في تلك المجتمعات .

٣- يقسم فوكوياما المجتمع الى ثلاث طبقات او عوالم، الاولى يمثلها الفلاسفة والعلماء والفنانون، الثانية تمثلها الثقافة الشعبية (العقل الشعبي)، والثالثة السلوكيات الفعلية لآبناء المجتمع وتصرفاتهم التي هي انعكاس لثقافتهم .

٤- تؤول التغيرات التكنولوجية والاقتصادية - بجانبها السلبى - الى تصدعات في المجتمعات الانسانية، وخصوصا ما يتعلق بمجال الاسلحة واختراع القنبلة الذرية وبعدها النووية واسلحة الدمار الشامل والاسلحة الجرثومية .

رابعاً: ورغم تحذير فوكوياما من الجانب السلبى (السيء) في التكنولوجيا، الا انه يرى اننا لا يمكن ان نرفضها لان ذلك يؤدي الى آثار غير محمودة على حياة المجتمعات، ففي رفضها ايقاف للطبابة ووسائل الاتصال ورفض للتصنيع ... وهذا يعني :-

١- ان انتقال العمل اليدوي الى فكري والمنتجات المادية الى معلوماتية والتصنيع الى الخدمات، أثر تأثيراً كبيراً على حياة الطبقة العاملة وأرباب الصناعات اليدوية؛ وخلق لنا ما يُعرف ب(نفايات التقنية) و (نقابات العاطلين).

٢- ان جميع التغيرات والتحويلات والتصدعات في المعايير الاخلاقية والتقاليد الاجتماعية التي شهدتها المجتمعات الاوروبية والامريكية، يرجعها فوكوياما الى تصاعد مستوى الفردية فيها .

٣- وقد حدد فوكوياما مصدرين لظهور النزعة الفردية في المجتمعات الغربية، هما: التراث اليهودي - المسيحي، خصوصاً النزعة البروتستانتية وحركة التنوير (ولاسيما افكار مكيافلي وهوبز ولوك وكانط). أما سبب ترسخ الفردية وتحولها الى فردانية في هذه المجتمعات فيرجعه الى الاقتصاد والفلسفة البراغماتية. والعولمة القائمة على (قوة المال والاعلام) و (الثورة المعلوماتية) .

خامساً: لاحظ فوكوياما انه كلما تقدمت الحياة وازدادت متطلباتها، وأتسعت مجالات العلم فيها، كلما تراجع القيم الاخلاقية لدى افراد المجتمع، وتراخت جبال التماسك الاجتماعي والأسري، وتزايدت الفردانية، فهناك تصادم بين النمو في الجوانب المادية والقيم الاخلاقية؛ لذلك :-

١- ترتب على تصاعد الفردانية ظهور مشكلات اجتماعية كبيرة منها، النسبية الاخلاقية، وعلى الصعيد السياسي ظهور حكومات ضعيفة غير قادرة على

حماية افرادها، وانعدام الثقة بين افراد المجتمع، وحدث تصدع في علاقات افراد الاسرة الواحدة، وغياب لغة مشتركة للخير والشر بين افراد المجتمع، وانتشار الفقر وشيوع الجريمة في المجتمع .

٢- وضع فوكوياما عدّة سُبُل لعلاج وترميم التصدع الذي تشهده المجتمعات الغربية، مقترحاً مقدمات للترميم تتمثل بايجاد قواعد اخلاقية ومعايير سلوكية توحد افراد المجتمع مع بعضهم في مجموعات اجتماعية تعاونية متماسكة، فعالة وقادرة على احداث التغيير المنشود .

٣- يرى فوكوياما ان ابناء المجتمع قادرون (وبشكل تلقائي) على ايجاد قواعد سلوكية واخلاقية خاصة بهم دون ان تُفرض عليهم من لدن سلطة القانون او الدولة او التقاليد، بما يلائم حاجاتهم ورغباتهم ومتغيرات العصر الذي يعيشون فيه. متكهناً بان العالم في القرن الحادي والعشرين سوف يعتمد اعتماداً كبيراً على هذه المعايير والقيم غير الرسمية، وان المجتمعات ستستمر في الاتجاه نحو خلق مثل هذه المعايير او ايجادها بسبب الطبيعة البشرية والعقلانية التي تُفتش عن الجديد .

٤- حدد فوكوياما اربعة مصادر للمعايير السلوكية او القيم الاخلاقية للافراد والجماعات هي: المعايير تلقائية النشوء، ومعايير سلطوية النشوء، ومعايير متوارثة من جيل الى جيل، ومعايير ناشئة عن طريق الاختيار المنطقي- العقلاني لافراد المجتمع بما يخدم مصالحهم وغاياتهم وظروف عصرهم .

سادساً: أما سبل ترميم التصدع فحددها فوكوياما في جملة من القواعد :-

١- الثقافة فلها دور كبير في خلق القيم الثقافية لافراد المجتمع لانها -حسب وصفه- قوة ديناميكية متجددة، في تغير المجتمع وتطور افراده وصياغة انماط سلوكية ومعايير اجتماعية قادرة على تكوين رأس مال اجتماعي يساعد في مواجهة التصدع .

٢- التعاليم الدينية فهي لغة مناسبة للتعبير عن القوانين والنظم الاخلاقية الموجودة في المجتمع، وان هذه التعاليم من الممكن ان تحقق النظام الاجتماعي داخل المجتمعات الصغيرة حتى مع غياب النبي -حسب قول فوكوياما- لذلك لأبد أن يكون للدين دوراً فاعلاً في مواجهة الحداثة والعصرنة. مبيناً ان المجتمعات الغربية وان استبدلت القيم الدينية بقيم سياسية الا ان ذلك لا يعني الغاء دور الدين من حياتها ولكن تغير اسلوبه وشكله في مواجهة التغيرات والتبدلات والتصدعات التي تعاني منها هذه المجتمعات .

٣- ان الفضائل الاجتماعية تؤدي دوراً كبيراً وحاسماً في تنمية الفضائل الفردية، لذلك يرى فوكوياما انه من الضروري ظهور شبكات ذات تنظيم ذاتي تعمل على اعادة بناء المجتمع وتضع حلولاً مناسبة لمشكلاته، وهذا هو دور منظمات المجتمع المدني والنخب العلمية والاكاديمية .

٤- يؤدي رأس المال الاجتماعي دوراً فاعلاً في بناء المجتمع وتقدمه، لانه يقوم على مبدأ التعاون بين افراد المجتمع، ابتداءً من الاسرة وصولاً الى اعلى المنظمات الاجتماعية. حتى ان المصالح الشخصية الانانية للافراد ستقوم بانتاج رأس المال الاجتماعي (كما يقول فوكوياما)، مُذكراً بثلاثة عوامل تساعد الافراد على تكوينه وبشكل متجدد، هي: الطبيعة الانسانية والفلسفة العقلانية والدين .

٥- يعطي فوكوياما للدولة القوية، دوراً فاعلاً في مواجهة التصدع، لهذا وجدناه يؤكد على اهمية تعلم بناء الدولة كخطوة اساسية لتكون قادرة على ضمان استقرار مجتمعاتها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وحقوقياً... الخ .

٦- يلعب الاقتصاد (العامل المادي) دوراً مهماً في بناء المجتمعات مادياً وعمرانياً، والارتقاء بمستوى افراد المجتمع الاخلاقي، والمجتمع الحضاري ككل، مثلما يكون واحداً من عوامل التصدع الحضاري والتراجع القيمي .

سابعاً: اجتمعت في فلسفة فوكوياما، قضايا العلوم ولاسيما علوم الانسان والبيولوجيا مع قضايا القيم والاخلاق، الى جانب المعلوماتية، لتشكل لنا إطاراً لنظريته في مستقبل الانسان، في مُثلث (العلوم - القيم - المعلوماتية) وعلى الوجه الآتي :-

١- ارجع فوكوياما في بحوثه ودراساته للطبيعة البشرية مكانتها ودورها الفاعل وتأثيرها الكبير على الانسان، حتى يكاد يكون تابعاً لها كلياً، ويتحدد فعله الحضاري وفقاً لقوانينها وهذا التأثير لا يقتصر على الانسان بل يتعداه الى التاريخ الشامل. وقد استقى مسألة التأكيد على دور الطبيعة البشرية في حياة الانسان من مصادر فلسفية، متأثراً بسقراط وافلاطون وارسطو من فلاسفة اليونان، وكانط من الفلاسفة المُحدثين .

٢- إنّ المعرفة عند فوكوياما مُركبة، اي ان هناك معلومات فطرية توجد منذ السنة الاولى من نمو الطفل واستعدادات واستجابات عاطفية فطرية، فهو يؤكد على دور الوراثة والجينات الوراثية في تشكل المعرفة الانسانية الى جانب دور التجربة (التعلم والاكتساب) .

٣- إنّ لغة الحقوق الانسانية تحدها الطبيعة البشرية، لان غايات البشر ترتبط بطبيعتهم وبمقدار تعلم المعرفة الشاملة للطبيعة البشرية تكون معرفة الانسان للغة الحقوق. وان الطبيعة البشرية تسعى دائماً الى خلق قيم ثقافية ونظام

اجتماعي مادامَ الانسان بطبيعته خلاق للقيم. وقد بين فوكوياما ان هناك ثلاثة مصادر لحقوق الانسان وصفها بالمُحتملة وهي: الحقوق الالهية، والحقوق الطبيعية، والحقوق الوضعية .

ثامناً: يوصف القرن الحادي والعشرين بأنه (قرن التقنية الحيوية) او (البيوتكنولوجي) او التكنولوجيا الحيوية، لارتباط علم الاحياء (البيولوجيا) بعلم الحاسوب (الكمبيوتر)، واندماجهما بمربع العلوم الذهبي (الفيزياء الكمومية، والنانوية، والكيمياء الحيوية الجزيئية، والرياضيات وعلم المنطق). لإنجاز ثورة جديدة في العلوم المعاصرة وهي (ثورة البيوتكنولوجيا) على الوجه الآتي :-

- ١- تجري اليوم محاولات لتقريب العقل من الآلة (الحاسوب)، انطلاقاً من القول بتفوق الحاسوب (الذكاء الاصطناعي) على العقل الانساني (الذكاء الطبيعي).
- ٢- تحمل ثورة البيوتكنولوجي المحاسن والمساوي، الفوائد والمخاطر، الخير والشر، الافضل والاسوأ للانسان، واذما ما تحدثنا عن مخاطرها، نجدها أما مادية واضحة للعيان، وأما روحية وخفية لايمكن ادراكها بسهولة وهي الاكثر خطراً على الانسان على مدى الاجيال في الارض .
- ٣- يشهد عالم اليوم انواعاً متعددة من الارهاب، تحولت الى حروب يُدع مبتكريها في صياغة اشكالها، منها (الارهاب البيولوجي) الذي يُعدّ نوع جديد من الاسلحة اخترعت للسيطرة على الناس وارهابهم، منها الجراثيم والفيروسات والامراض الغريبة والخطيرة والمُعديّة والمُصنّعة كالايذس والجمرة الخبيثة وجنون البقر وغيرها .

تاسعاً: تُعد الهندسة الوراثية، اكثر التقنيات الحيوية ثورية وخطورة في مجال البيوتكنولوجيا، وقد تؤول الى ظهور شكل جديد من اليوجينا (تحسين النسل) او (تعديل البشر وراثياً) (الاقلية الغنية!)، وتعميق الفروق بين البشر، ومن ثمة تهديد الطبيعة البشرية والوجود الانساني. وتُعد السبيل الرابع المؤدي الى المستقبل - حسب قول فوكوياما - فهي المرحلة الاكثر بُعداً في تطور البيوتكنولوجيا ؛

١- قد تقود حركة تحسين النسل الجديدة الى النظر للاطفال على انهم منتجات مُصنعة للتقنية والعلم، وليست مخلوقات بشرية طبيعية، وقد يتماذى العلماء ويقومون بتخليق مخلوقات (بيوهمجية) بأستعمال جينات بشرية (حسب رؤية فوكوياما) بأدوات تقنية .

٢- إن اخطر ما يهدد الانسان كوجود وطبيعة وفكر، هو اباحات الاستنساخ البشري، فمن شأن هذه الاباحات اذا ما طُبقت على البشر ان تنهي كل ما هو

طبيعي وتستحدث عالم جديد صناعي-حيوي، يظهر فيه انسان جديد (ما بعد بشري)، او كائنات فوق- بشرية (سوبرمانات) او (سايبورغات) .

عاشراً: تقايض ثورة البيوتكنولوجي الانسان بين امرين: تخليصه من الألم والمعاناة (المرضية)، او خسارته للجوانب العاطفية والانسانية. فمن الآثار السلبية لهذه الثورة مسألة إطالة أمد الحياة، التي قد تؤدي الى حدوث تغييرات ديمغرافية واجتماعية، وعواقب اجتماعية تتعلق بالتسلسلات الهرمية في المجتمع. فهي تقدم للانسان صفقة شيطانية، عمر أطول وحياة مديدة مقابل جودة اقل للحياة أو قل على حساب كرامة الانسان، هكذا :-

١- تهدد ثورة البيوتكنولوجيا الكرامة الانسانية، متى ما تعامل العلم والعلماء مع الانسان على انه مجرد شيء قابل للتعديل والتغيير والتبديل!! منكرين وجود كرامة انسانية او ماهية انسانية لايمكن المساس بها. لان الانكار للكرامة الانسانية يؤدي - كما يقول فوكوياما - الى ازدياد الهرمية بين افراد المجتمع، لذلك لا بد من حماية هذا الخاصية المميزة للانسان من لدن المؤسسات الثقافية والفلسفية والسياسية والعلمية .

٢- لقد وضع فوكوياما سبيلين لمواجهة الظلم الوراثي الناتج عن الیوجینا، وهما: منع استعمال البيوتكنولوجيا في تعزيز الخصائص البشرية، وتدخل الدولة لتعزيز الكرامة الانسانية والحفاظ عليها .

٣- واخيراً فإن المسألة العلمية - والتقنية والفلسفية، في الحضارة المعاصرة لا تتوازن، الا اذا اقمنا مثلث (الكرامة والاخلاق والدين)، وبهذا يمكن السيطرة على التجارب (البيوتكنولوجية) بما يوفر للانسان (الصحة الوقائية) ويحقق (العدالة) بين افراد المجتمعات المختلفة، وفق قاعدة عقلانية تقوم على اساس الحقوق والواجبات المتبادلة بين الافراد ومؤسساتهم المختلفة، (الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية والسياسية ...).

